تمهيد ذو أهمية

يرى بعضُ النقاد أن الشعر في عصر النبوة وصدر الإسلام قليل، وغيرُ ذي أهمية، ومحدود الأغراض، لانشغال المسلمين عصرئذٍ عن قرض الشعر بالجهاد، و لدفاعٍ عن الإسلام، وحفظِ القرآن، وروايةِ الحديث، ولقصرِ الحقبة، واختلاطِها بالجاهلية والخضرمة.

ولهذا نرى الدراساتِ الأدبيةَ قليلةً في هذه المرحلة، وغيرَ عميقةِ الدراسة الأدبية والفنية. وإنْ أراد بعضهُم التوقفَ عند بعض القضايا فليس أمامَهم سوى الخطبِ، ودفاعِ بعض الشعراء عن الإسلام وعن النبي ﷺ أمام الشعراء المشركين المُعادين، والرَدِّ عليهم. واكتفَوْا من أسماءِ الشعراء بحسانَ، وكعبٍ، ولبيدٍ.. وكأن الأمرَ لا يعدو هذه الموضوعاتِ، وهؤلاء الشعراء.

وهم إذا قَلَّلوا من أهميةِ شعراء عصر النبوة، فأَحْرِ بهم أن ينسوا المرأةَ الشاعرة، وأن يَغمطوا حقَّها ودَورها. ولهذا نجد من يجمعُ شعرَ الشعراءِ حولَ الرسول ﷺ، من غيرِ أن يشير إلى شاعرة واحدة أحياناً، ناسين أو متناسين مواقفَ الشاعرة المجاهدة، أو الراثية للمجاهدين الشهداء، أو الزوجة، أو العاشقة العفيفة، كما فعل الدكتور عبده بدوي في كتابه «شعراء حول الرسول».

كما لفت نظري دورُ المرأة الشاعرة التي هَضم حقَّها النقادُ المحدثون قبل القدماء، إلا ما جاء في «الدرِّ المصون»، و«أعلام النساء»، و«شواعر العرب»، على ما في كتبهم من ضرورة إعادة نظر. فانثنيتُ على هذا الموضوع، أطوي له الكتب، والمجلدات، والصحف، وأتتبَّعُ له كتب السير والتاريخ، وكتب الترجمات والأدب. فهالني ـ بعد صبرٍ ومتابعة ـ ما وقع تحت يدي من مادة ثَرَّة، وكنوزٍ ثمينة.

فعكفتُ على الموضوع أُشبعه بحثاً وتقميشاً، وجمعاً ورَصْداً، حتى وقع تحتَ

يدي ـ بعد سنوات ـ رُكام هائل من الشعر، قُدِّر بأكثر من ثلاث مئة شاعرة... بينَ من قالت البيت والبيتين، والقصيدة والقطعتين. فأقصيتُ معظمَ مالهن القليل، إلا ما رأيتُ ذكره لزاماً، وبقي لدي أكثر من مئتي شاعرة [١]، مئة وثلاثون لهن أسماء وأنساب، والباقي: أخت فلان، أم فلان، امرأة فلان، أعرابية، امرأة... ودرستُ المادة المجموعة من جوانبَ عدة، أهمها:

الزمان:

رأيت أن عصر النبوة لا يعني زمانَ النبي ﷺ وحده، ولا صدر الإسلام لقصره. بل ارتأيت أنه يضم من العصر الجاهلي ما كان قُبيل الإسلام، وسنواتِ حياةِ رسول الله ﷺ، وأيامَ الخلفاء الراشدين، وبُعيدها. فقد وقع لي شعرٌ لأمِّ النبي ﷺ آمنة بنت وهب، وشعرٌ لعماته ممن عشن في الجاهلية، وأسلم بعضهن ومات بعضهن على الشرك. كما وقع لي شعرٌ لمخضرماتٍ ولدن في الجاهلية، وامتدت أعمارهنَّ إلى زمان الحجاج مثل هند بنت النعمان بن المنذر التي عاشت في الجاهلية، وصدر الإسلام، وزارَها خالدُ بن الوليد، والمغيرةُ بن شعبة، والحجاج. ويُروى أن آخر الصحابة موتاً هو عبدُ الله بن علقمة المتوفَّى سنة ٨٧هـ.

ولهذا لم أجد خَيراً من ذكرِ سُكينة بنت الحسين، وليلى الأخيلية مثلاً. ولكنني استبعدتُ الشاعرات الأندلسيات لتأخرهنَّ وبُعد ديارهن. كما استبعدتُ الشواعرَ في كتب مصارع العشاق وتزيين الأسواق لغموض زمان عيشهنَّ، والشكِّ الذي يعتري حيواتِهن، إلا ما ثبتَ شعرهن، وعرف زمانهن.

فالشاعراتُ إما جاهلياتٌ قريبات العهد من الإسلام، وإما صحابيات، وإما من قرابة النبي ﷺ، وإما المخضرمات، وإما المشركات ومِتْنَ على شركهن، وإما عاصرن النبيَّ ﷺ ولم يَرَيْنه، وإما تابعياتٌ، وإما من بنات الصحابة كبنت الصحابي النعمان بن بشير.

وما ذكرتُ من الجاهليات فلمعرفة المرأة قُبيل ظهور الإسلام أو بُعيده. أما مَن عِشن في حقبةٍ جاهلية بعيدة فعزفتُ عن ذكرهن مثل هند بنت حُذيفة، وهند

---

(١) ذكر ابن سيد الناس في كتابه «مُنَح المِدَح» أن عدد شعراء الرسول من الرجال والنساء بلغ مئة وثمانين. وذكر غيره أن عددهم حوالى ست مئة شاعر.

بنت بياضة، لبعدهن عن مرحلة بشائر النبوة. وكذا فعلتُ مع مَن بلغن أواخر العصر الأموي.

وقد وقعتُ على عدد من الشواعر لم أعرف زمانَ حياتهن. فاخترتُ مافي حياتهن أو مناسبة نظمهن بما يلائم الحقبة التي حصرتُ دائرة عملي فيها وقلت: «الإفاضة في الخير أفضلُ من الإنقاص في الشك».

توثيق النصوص:

إن كل شعر وصل إلينا يعود فضلُه إلى جهد الرواة، ومؤلفي الكتب، ومصنفي المجموعات الشعرية. وليس من شك في أن هؤلاء جميعاً يُعنون بذكر شعر الرجال، وقلما يتناولون شعر النساء. لكنهم جمعوا بعضَ شعرهن مشكورين. ولعل الجاحظ أبرزُ من استشهد بشعرهن في كتابه «البيان والتبيين»، وأبا تمام أول من اختار في حماسته من شعر الشاعرات، على قلة هذا الاستشهاد، وقلة المادة المختارة.

وهم في هذا العمل الضَّنين لم يلتفتوا إلى ترجمة الشاعرات، والتعريف بهن، و لفيض في أخبارهن، والخوض المفصل في مناسبة شعرهن. وإذا ذكر مؤلفو كتب الأدب والتاريخ جانباً من أشعارهن فمن قَبيل الاستشهاد على الحدث ليس غير. لكن كتبَ تراجم الصحابة والسيرة النبوية كانت أكثر ميلاً إلى التعريف والتفصيل أحياناً، وذلك ضمن حدود النص أو الحدث، ولا سيما المشهورات منهن.

وجاء تقصير الرواة أيضاً من عدم ذكر أسمائهن أحياناً؛ فكثيراً ما يقع الباحثُ على قولهم: قالت أعرابية، امرأة، . . وإن مَنُّوا علينا قالوا: أخت فلان، بنت فلان، أم فلان، زوجة فلان. .

وقد يقع الباحثُ على كتاب يقول: لأعرابية . ثم يقع على كتاب آخر يذكر اسم هذه الأعرابية، أو نسبها، أو بعضه. وقد يبدو هذا الغموضُ على بعض الصحابيات، أو زوجات الصحابة، أو بناتهن، أو أخواتهن بسبب الفتن أو الإهمال.

فإن لم تُسعفني المصادر بالتعريف بهن، أو بأسمائهن عرفت بمن كُنين بهم، أو نُسبن إليهم من مصادر كلها مما يُوثق بها ويعتمد عليها تمام الاعتماد.

وقد صادفتني أمور سعيت إلى تلافيها. وأجد ذكرَ بعضها ضرورياً. من ذلك:

١ ـ **اختلاط الأسماء**: فهند بنت النعمان لها اسم آخر هو «الحُرَقَة»، وهو اسمها الأصلي. ولهند بنت النعمان بن بشير أسماء أخرى هي: عمرة، حمدة، حميدة.. وبعض هذا الاختلاط جاء من تصحيف النساخ، أو من تشابه رسم بعض الأسماء مثل: عتبة، وتقرأ: عنبة، وغنية.

٢ ـ **اختلاط النصوص**: نُسب بعض النصوص إلى أكثر من شاعرة، لتعدد الروايات، أو تقارب الأحداث، أو للقرابة بين شاعرة وشاعرة. وذكرتُ في الحاشية كل هذه الاختلافات والروايات.

٣ ـ **تعدد الروايات**: جاء بعض الشعر متعددَ الروايات، تَبَعاً لتعدد الرواة، واختلاف وِجهات نظر جامعي المختارات. وقد جاء بعضُ هذا الشعر مكسوراً أو مضطرب الوزن. وهذا من عيب النساخ، أو من إهمال جامعي الشعر أو المحققين المعاصرين مثل «شرح نهج البلاغة»، فمع أهمية الكتاب نراه حافلاً بالأخطاء. وكذا الأمر في «أعلام النساء» و«شاعرات العرب». ولا أستثني من ذلك كتب الرجال كأسد الغابة، والإصابة. فالقدماء كتبوا صحيحاً، والنساخ والناشرون قصروا. لكن الواقع أن هذا الاضطراب محدود، لا يقارن بفضل عملهم.

ومن تقصير الرواة أنهم لم يجمعوا كلَّ شعر النساء، ولا بعضه. وما وصل إلينا قليل جداً. وهذا القليل يدلُّ على شاعرية وسليقة وبَداهة، وعلى قراءة دقيقة للصورة أو الحدث غالباً. كما أن الرواة لم يذكروا القصيدة كاملةً، بل اكتفوا بنموذج أو نموذجين للمناسبة. ومعلوم أن أصحاب الحماسات والمجموعات الشعرية يختارون من شعر الشاعر جانباً، ومن القصيدة متخَيَّراً. ولهذا قلما نعثرُ على كلِّ شعر الشاعرة، أو على كامل قصيدتها أو قصائدها. ومعظمُ ما وقع بين أيدينا قطعٌ قصار، أو قصائد نادراً ما تبلغ عشرين بيتاً، باستثناءِ الخنساء، وصفيةَ بنتِ عبد المطلب، وهند بنت عتبة.. وهم يعترفون بتخيُّرِهم هذا فيقولون أحياناً: «والقصيدة طويلة»، أو «مما قالته..».

٤ ـ **النَّحْل**: لا نشك بأن بعض الشعر منحول. فكنت أسجلُ معظمه على عِلاَّتِهِ، وأشير إلى رأيي في النحل وأسبابه. ولا سيما شواعرُ الأحداث القبلية، وشواعرُ آل البيت.

٥ ـ **غموض الأسماء**: تقصَّيْتُ التوثيق حيال الأسماء المتعددة، أو المجهولة. فعمدتُ إلى ذكر الاسم الغالب على المرأة، أو المشهورة به، أو الأصلي. وأحلتُ على الأسماء الأخرى في الحاشية على ما يأتي تفصيله.

الأغراض الشعرية:

لا شك أن أغراضَ شعر النساء تختلف عن أغراض شعر الرجال. فالمرأة أكثر عاطفةً من الرجل، ولهذا نراها أغزرَ شعراً في الرثاء. ولا سيما الشاعراتُ المشركات أو المسلمات اللائي فَقَدْن أعزاءهنَّ في الحروب أو الغزوات أو الجهاد، بما في ذلك الحروب التي جرت بين علي وعائشة، وعلي ومعاوية، وعلي والخوارج. ولعل من أجمل ما قيل في الرثاء ـ بعد رثاء الخنساء لأخويها ـ ما قالته بناتُ عبد المطلب حين دنا أجلُ أبيهن؛ فقد طَلب إليهن أن يقلْنَ شعراً في رثائه ـ وهنَّ عماتُ النبي ﷺ ـ كي يسمع ما يندُبْنَه به حين موته.

والمرأةُ إن أنشدت شعراً في غرض من أغراض شعر الرجال جاء معها دونَه قدرةً أو جرأة، كالغزل. لكن الغزل كان موجوداً ذلك العصر. والمرأة كانت صريحةً في البوح عما تكابده مثل ليلى الأخيلية. غير أنها تميلُ إلى الإحجام عن صريح الوصف، ومديح العبارة. وشاعراتُ الغزل العذري ظهرن في البادية العربية أكثر من الحاضرة، وتحلَّيْنَ بالقيم العربية، وتقاليد الصحراء، مضافاً إليها المُثُلُ العليا التي بَثَّها الإسلام في نفوسهن.

فالظاهر على غزلهن العفةُ، والطهر، واستعذاب المُعاناة التي تكابدُها ويكابدها عاشقها، ولو أدَّى ذلك أحياناً إلى فَضح الهوى، أو موت العاشقين.

كما أننا نرى كذلك شعراً في الحكمة، والموعظة، والحنين إلى الديار، والشوق إلى الأهل، وشعر المديح ولا سيما مديح الإمام علي وآله من المنكوبين. فهو مديح مشفوع بالرثاء واللوعة. ونجد كذلك الهجاءَ والمفاخرة كما عند هند بنت عُتبة.

كما أن المرأة تَهوى صغيرَها أو صغيرتها. فنرى الشاعراتِ يُرَقصن أولادهنَّ برجز عذب، كرجز حليمةَ السعدية ظئرِ الرسول ﷺ، ورجزِ ابنتها الشيماء أختِ النبي ﷺ في الرضاع، وغيره.

ولعل من أجَلِّ ما قُلن من أغراضٍ شعرَ الجهاد، والحثَّ على نزول ساحات الوغى لحرب المشركين، أو المرتدِّين، أو الخارجين على مسيرة الإسلام. مما يدل على اشتراك المرأة بالجهادِ قَلباً وعملاً. فقد قالتِ الربيعُ بنتُ معوذ: «كنا مع النبي نسقي ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة» (١).

إلى جانبِ ما قلنه في دفع أبنائهنَّ إلى الجهاد، وقصائدِ الحثِّ على الثبات في المعركة، والحفاظ على الدين، والشرف، والتقدم. كما أننا نجد شعراً مناهضاً للمشركات، كما جرى بين هند بنت عتبة وهند بنت أثاثة، مما يدل على حماسة المرأة المسلمة شاعرة وغير شاعرة. والرجز كثير في أشعارهن.

أهمية الكتاب:

جاءت أهميةُ الكتاب من موضوعه، ومن العصر الذي حَدَّده. فالكتبُ التي ذكرت النساءَ شاعراتٍ وغيرَ شاعرات كثيرةٌ، بين الجاهلية والإسلام. وكذلك الكتب التي ذكرتِ النساء منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر.

غير أن الهدف الذي تطلع الكتابُ إليه بكرٌ، لتخصُّصهِ في حقبة معينة، والتوسع فيها، وضمِّ معظم النساء اللائي قلن شعراً. فغدا سهلاً لكل باحث ينشُدَ طلبه في عصر النبوة.

وقد ذكرتُ الجاهليات القريبات من عصر النبوة، وأهل الكتاب، والمخضرمات، والمشركات اللاتي متنَ وهن مشركات، والمنافقات، والمشركات اللاتي أسلمن وحَسُن إسلامُهن، والمسلمات الصحابيات، والشاعراتُ من آل البيت في زمان النبي ﷺ وبُعيده، والمسلمات ممن وُلدن مع آبائهن على الإسلام، كل ذلك في إطار زمني لا يزيد كثيراً على نصف قرن من الزمان. وتتضح أهمية الكتاب أكثر في بسطي لحظة العمل.

خطة العمل:

ضِمْنَ الإطار الزمني قسمتُ الكتابَ إلى ستة أقسام:

١ ـ شواعر عُرفت أسماؤهن وأسماءُ آبائهن. فرتبتُ ترجماتِهن بحسب التسلسل

(١) حياة الصحابة: ١/٥٧٨.

الألف بائي في غاية من الدقة. وهو القسم الأول من الكتاب، والأكبر.

٢ ـ شواعرُ عُرفن بإخوتهن من غير معرفةٍ لأسمائهن، مثل «أخت الأجلح». فنظمتُ أخبارهن وشعرهن تحت عنوان «أخت». وهو القسم الثاني من الكتاب. وعرفت بالأخ والمناسبة.

٣ ـ شواعر عُرفن بكناهُن، أي بأسماءِ أبنائهن، مثل «أم كلثوم العامرية». فأسميتُ هذا القسمَ بـ «أم». وهو القسم الثالث.

٤ ـ شواعر لم نَعرف عنهن شيئاً، فوضعتهُنَّ تحت عنوان «امرأة». وحاولت وضع نسبة لقبيلة، أو صفةٍ ما تُدْني الباحث من بعض المعرفة، كقولي: امرأة خثعمية، أو امرأة من عجل، أو امرأة زمن عمر...

٥ ـ شواعر عُرفن بائهن، فأثبتُّ أخبارهن وأشعارهن تحت عنوان «بنت». مثل: بنت وثيمة، بنت مُلاعب الأسنة.

٦ ـ ووقعتُ على شعر قليل منسوب إلى نساءٍ بشكل جَماعي مثل: نساء ثقيف، ونساء عرب الجزيرة. فختمتُ به الكتاب تحت عنوان «نساء».

وعلى هذا النسق رتبت فهرسة الكتاب.

ومن رُوي لها أكثر من اسم ـ ومعظمهن من القسم الأول ـ عُرفتُ باسم، وذكرت في الحاشية الأسماء الأخرى التي سُميت بها، وذكرتُ الأسماءَ كلَّها بحسب تسلسلها من ترتيب الكتاب. وأحلتُ القارئَ على الاسم الذي تمَّ اختيارُه للتعريف به وذكرِ شعره، بقولي: انظر. فالفارعةُ بنت ثابت أختُ حسان لها ترجمة، ولها كذلك اسم آخر هو «خولة بنت ثابت». فعرفت بها وبأخبارها في «خولة». حتى إذا جئت إلى حرف الفاء عند الفارعة قلت: انظر خولة.

ويرجع سبب حرصي على ذكر الأسماء جميعاً في مواضعها خشية أن يبحث المطالعُ عنه فلا يجده في كتابي «شاعرات عصر النبوة». وبطريقتي هذه ندرَ ألا يعثُرَ الباحث على طلبه.

وبينما كنت أجمع المادة كنت أفكر في تسميةٍ دقيقة للكتاب. وترجَّحَ لدي عنوانان بادئَ ذي بدء، هما «شاعرات رسول الله» و«شواعر حول الرسول». ثم عزفتُ عنهما، لأن الكتاب لا يضمُّ صحابياتٍ وحسب. وانتهيتُ إلى اختيار

العنوان «شاعرات عصر النبوة»، لأنه أقرب ما يكونُ لهدفي.

والمعروفُ أن جمع شاعرة «شواعر»، وهو أفضل من «شاعرات». غير أنني اخترت الشاعرات، لأن الكتاب لم يُصنع للباحثين وحسب، وما كلُّ قارىء يدرك أن «شواعر» يعني «شاعرات»، وكلاهما صحيح.

وقد ذكرتُ في خاتمة كلِّ ترجمة المصادرَ التي رجعت إليها، ليعودَ إليها الباحث إن رغب في المزيد. وقد كنتُ أجد شاعرةً وردَ ذكرها في مصدر واحد، مثل بعض كتب الحماسات أو الأدب. في حين أنني قد أعثر لشاعرة على عدد وافٍ من المصادر. فكنت أذكرُ المصادر والمراجع كلها غيرَ متناسٍ كتبَ الشيعة، والتاريخ، والجغرافية، والسيرة، والأدب، واللغة.

كما أفدتُ من بعض كتب الأدباء المعاصرين الذين جَمعوا شعر النساء أو أخبارهن مثل عمر رضا كحالة في «أعلام النساء»، وبشير يَمُّوت في «شاعرات العرب» على قصر باعهم في عدم ذكر مصادرهم، أو توثيقاتهم، أو التعريف بالشاعرات، أو الشرح، أو اختلال الوزن... ولهم الشكر والفضل على أي حال.

ومع كلِّ هذا العناء الذي بذلته، والجهد الذي تحملته، لا أزعمُ الإجادة؛ فلا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها. ولكنها خطوة تُغتفر زلاتُها لأنها بكر، ومجاهدةٌ صادقة في ذكر ما يجب علينا ذكره من شواعرَ غمط النقادُ حقوقهن، كما غمطوا حقَّ العصر نفسه.

واللهُ الموجه إلى الصواب، وعليه توكَّلْتُ وأتوكل

حلب في ٨ ربيع الثاني ١٤٢٣

الموافق ١٨ حزيران ٢٠٠٢

محمد ألتونجي

obeikandl.com